الأحد: 2024/02/11

التوقيت: 11:20 – 12:50/

القاعة: 33 في الكلية

المحاضرة رقم 01: نشأة فنون النثر العربية الحديثة

(عرض تاريخي). الجزء الثاني

ثالثا: عرض تاريخي

يرى كثير من مؤرِّخي الأدب العربي أن الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت على مصر أيقظت العرب من سبات الحكم العثماني، وأن مدافع هذه الهجمة كانت سبباً في إشعال جذوة النهضة العربيّة الحديثة، بل يعتقد البعض أن حملة نابليون كانت علميّة أكثر منها حربيّة[1].

وهذا الرأي صائبٌ بالنسبة إلى مصر؛ فإن الاحتلال الفرنسي كان سبباً في تأليف المجمع العلميّ المصري على نظام المجمع العلمي الفرنسي عام 1898م، الذي أنشئ لأغراض ثقافية وسياسية، وكان له الفضل الأكبر في إنشاء المدارس الحديثة، وإرسال البعثات العلميّة إلى أوروبا، وإدخال المطابع، ونشر الجرائد.

لكننا عندما نمعن النظر في تاريخ النهضة العربية الحديثة، وحياة أدبائها في بداية مشوارها، نرى حسب ما أورده الكاتبين "**حميد احمديان**" و" **علي سعيداوي**" في مقالهما المعنون بـ: نهضة النثر العربي المعاصر **((بين اللبنانية والمصرية))**

أن طلائع التحول في الأدب العربي ظهرت على أيدي الأدباء اللبنانيين، الذين لم تكن لهم أية صلة بما حدث في مصر إثر الحملة الفرنسية. ولا نوافق الدكتور شوقي ضيف على قوله: «استطاعت مصر في العصر الحديث أن تنهض نهضة واسعة في النثر العربي. وقد بدأت هذه النهضة في القرن التاسع عشر، منذ أرسلت البعوث إلى أوروبا»[2]. ونحن لا نوافق أيضاً على أنّ الكتّاب المعاصرين تعرفوا على النثر العربي بعد حملة نابليون؛ لدليلين:

---

[1] عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر، 1950م، ص22.

[2] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مصر، دار المعارف، 1960م، ص391.

الأوّل: لم يندثر النثر تماماً تحت وطأه التصنع والتقليد والتعقيد، بل كان هناك مَنْ يكتب بالنثر المرسل، بل وينادي بالتجديد، ويندد بالكتابة المصنوعة.

الثاني: إن الكتّاب اللبنانيين هم الذين نهضوا بالنثر، قبل المصريين، وقبل حملة نابليون بسنوات.

مع أنّ رفاعة من سادة النثر المرسل الرشيق في مصر لكنّه لم يحرز قصب السبق في تطّور النثر العربي، ولم يسبق اللبنانيين في النثر، كما تصالح عليه كثير من الكتّاب، ولا سيما المصريين منهم.

وها هو محمد عبده مع سعة علمه وعدم تحيزه ينسب النهضة النثرية إلى مصر، ويعتقد أنها حدثت على يد جمال الدين الأفغاني، فهذا قوله في جريدة الهلال المصرية[1].

ونحن نعلم أنّ الأفغاني ولد عام 1839م، ولم يدخل مصر إلاّ عام 1871م، كما يقول عبده في جريدة الهلال، فلا ندري كيف تتلمذ كتبة مصر على يد جمال الدين، حتى أصبحوا تلامذته في الكتابة، وتركوا السجع بسببه؟ نحن نعلم أن جمال الدين قد سبقه أعلام الثورة النثرية بسنوات، مثل: الشدياق في لبنان، ورفاعة الطهطاوي في مصر، فعندما ولد الأفغاني كان للشدياق 35 من العمر، وللطهطاوي 38 من العمر، فكيف غاب هؤلاء الكتاب وجهودهم على محمد عبده؟

لقد اتصل اللبنانيون بالغرب قبل الاحتلال الفرنسي لمصر بقرون، لكنّه لم يكن اتصالاً يفضي إلى نهضة ثقافية شاملة تعمّ ذلك البلد؛ لأسباب، منها: إن اللغة العربيّة لم تصبح لغةً رسمية في لبنان إلا منذ القرن الخامس عشر[2]. لكنهم بادئ ذي بدء كانوا

[1] محمد عبده، الأسد الثائر جمال الدين الأفغاني، مجلة الهلال: العدد 284: دار الهلال، 1973م، ص 25.

[2] مارون عبود، صقر لبنان أو أحمد فارس الشدياق، دار الثقافة، بيروت، ط2، ص 57.

يستخدمونها بشكل منحطّ، تكثر فيها الأخطاء، وضعف التأليف، وكانت عندهم أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى.

وأخذت تنمو نمواً تدريجيّاً بفضل التبادل الثقافي الذي كان بين أوروبا ولبنان، فعلّم اللبنانيون الغرب لغات الشرق، كالسريانية، والعربيّة، والعبرانيّة، وتعلموا من لغاته اللاتينّة، والطليانيّة، واليونانيّة، والفرنسيّة، وغيرها من اللغات الأوروبيّة. وظلّ هذا التبادل الثقافي متواصلاً حتّى آتى ثماره ناضجة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر[1].

ومن ثمار هذا التبادل الثقافي حركة الاستشراق هي الأخرى لعبت دوراً هامّاً في النهضة الحديثة، وتوجيه الباحثين نحو الدراسات العلميّة، والأخذ بأساليب البحث العلمي، وإرسال البعثات العلميّة إلى أوروبا، ليعودوا إلى بلادهم ببضاعة علميّة وافرة، وإنشاء المطبعة العربيّة ولغات أجنبيّة، كاليونانيّة، واللاتينيّة، والإيطاليّة، والفرنسيّة، ومن أهمها: مدرسة عين طورة، ومدرسة عين ورقة، وهذه الأخيرة لقبها مارون عبود بـ«سوربون» الشرق، وقد أُنشئت هذه المدرسة قبل احتلال فرنسا لمصر بتسع سنوات، ومنها تخرج عملاق النهضة الأدبيّة الحديثة أحمد فارس الشدياق[2].

كان الطلاب الذين يتخرجون من هذه المدارس يكتسبون الكثير من القوالب البيانيّة الخاصة باللغات الأجنبيّة التي تعلموها، ثمّ أخذوا ينسجون الجمل العربيّة على منوالها، ويسعون إلى تهذيب لغتهم من التعابير الضعيفة الركيكة، حتى كان أحمد فارس الشدياق، ففك الأغلال، وحمل لواء التجديد في النثر العربي[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص63.

[2] حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، 1986م. ص 10 . 11.

[3] مارون عبود، صقر لبنان أو أحمد فارس الشدياق، ص59.

كان الفضل للأديب أحمد فارس الشدياق في تحرير النثر العربي من السجع والبديع بنثره الطريف وأسلوبه الظريف، وعمل عام 1828م محرّراً في جريدة «الوقائع المصريّة»، وكتب فيها المقالات بأسلوب جديد لم يألَفْه المصريون قبل ذلك[1].

كما أن هناك أدباء لبنانيين كثيرين لعبوا دوراً هاماً في تطور النثر العربي، أمثال: ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني. لكننا نلاحظ بعض المؤرّخين عندما يعالجون تاريخ الأدب العربي المعاصر لا يشيرون إليهم وما لهم من فضلٍ في النهضة الحديثة.

فهذا عبد المنعم الخفاجي يقول: «ومحمد عبده رائد للأسلوب النثري الحديث بما دعا إليه من الثورة على السجع وعلى المحسِّنات، ومن الحرص على مساوقة الطبع، والتعبير عن المعنى، ومن الصدق في هذا التعبير»[2].

بينما ولد الإمام محمد عبده والشدياق في الـ35 من عمره، وهو في قمة نشاطه الأدبي، وربما نستطيع أن نعدّ ما قام به الإمام محمد عبده من إصلاح في النثر العربي استمراراً لحركة أحمد فارس الشدياق، وليس له فضل الريادة في هذا المضمار. هذا من جانب، ومن جانب آخر بإمكاننا أن نقول: إن الفضل الأكبر في ما وصلت إليه مصر من زعامة للبلاد العربيّة في النهضة الحديثة يعود إلى الأدباء الذين هاجروا من سورية ولبنان إلى مصر؛ إما فراراً من الحكم العثماني، وما جرّه عليهم من اضطهاد؛ وإما ابتغاءً للنجاح الأدبي في مصر.

ونذكر من هؤلاء الأدباء المهاجرين على سبيل المثال لا الحصر: نجيب حداد، وإبراهيم اليازجي، ويعقوب صروف، وشبلي شميل، وجرجي زيدان، وكثيرين غيرهم. عندما استقرّ هؤلاء الأدباء راحوا ينشرون الجرائد، ويؤلّفون الكتب والمقالات، وكانت لهم مشاركات قيمة في نموّ الجانب الثقافي في مصر.

---

[1] عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ص 101.

[2] عبدالمنعم الخفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، 1992م، ص 304.

فبعد كل هذا نستطيع أن نقول: إن بوادر التطور في النثر العربي ظهرت في لبنان، وكان ذلك نتيجة للتبادل الثقافي الذي كان بين اللبنانيين والأوروبيين، الذي امتدَّ لعدّة قرون، لا الحملة الفرنسية وما أحدثته من تحوُّلات في مصر.

كما لا يمكن أن ننكر عجلة النهضة التي حرّكتها الحملة الفرنسية في مصر والتي ظلت تسير إلى الأمام بطيئة، ولكنها مستمرة، يمدّها الأدباء السوريون واللبنانيون، فازدادت قوة وسرعة، حتى نرى ريادة الأدب العربي تنتقل إلى مصر في منتصف القرن التاسع عشر.

مَنْ يراجع كتابات الإمام محمد عبده في بدايات حياته الأدبيّة يرى فيها كثيراً من التكلُّف في استخدام الصنعة، لكنه بعد فترة، وبإيعاز من أستاذه جمال الدين الأفغاني، حرّر قلمه من القيود اللفظيّة، وترسَّل في كتابته.

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو أن النثر العربي كان قد تحرّر من السجع والبديع قبل ولادة الإمام محمد عبده بأكثر من عشرين سنة على يد أحمد فارس الشدياق، كما تحدثنا سابقا فلماذا لم يتَّخذ الأدباء الذين جاؤوا بعده طريقته في الكتابة؟ وما هي الأسباب التي دعتهم إلى العودة إلى قيودٍ لم يتحرَّر منها الأدب إلا بعد عقودٍ مديدة؟

نستطيع أن نقدِّم بعض الاحتمالات جواباً على هذا السؤال:

الأول: بعد أن تولى عباس الأول الحكم أغلق جميع المدارس إلا القليل منها، وألغى مدرسة الألسن، ونفى الشيخ رفاعة الطهطاوي إلى السودان، مما أحدث النكسة في الحياة العلمية بعد تولّيه الحكم عقب وفاة محمد علي باشا.

الثاني: إن ما قام به الإمام محمد عبده وغيره من الأدباء الذين عاصروه من إصلاحات في النثر العربي كان امتداداً للحركة الشدياقية، وليس مستقلاً عنها.

الثالث: وهو يعود إلى الأزهريين وما لهم من سلطة سياسية وفكرية على الشعب المصري آنذاك، فهؤلاء الأزهريون المحافظون لم يرتاحوا إلى الإصلاحات التي قام بها رجلٌ مارونيٌّ من بلدٍ له علاقات حميمة مع الغرب، فلهذا تعصَّبوا على طريقته ولم تشِعْ بينهم.

فنحن إن أخذنا بالاحتمال الثاني فبإمكاننا أن نقول: إن بوادر التطور في النثر العربي ظهرت في كتابات أحمد فارس الشدياق، وازدهر في مقالات الأدباء المصريين، وإن أخذنا بالاحتمالين الأول والثالث فيصير الفضل في كليهما لأحمد فارس الشدياق، لا غيره.

بناء على ما تقدم يتضح لنا أن نشأة فنون النثر العربي الحديث اختلف الكتاب حول ميلادها بين المصريين واللبنانيين، لكن تبقى هذه آراء وجهات نظر لأصحابها لهم الحق في الدفاع عنها حسب حججهم وبراهينهم ومرجعياتهم الفكرية التي انطلقوا منها.